فولكمار

جاء فولكمار لزيارتنا بعد بضع سنين وذهب يوسف ونضال لاستقباله في المطار.. كان عفيف واجما جالسا على مقعده في الصالون قبالة التلفزيون، وأنا الى جانبه، وكان الشاب الذي أطل من الباب وسيما كصورتيه اللتين أرسلهما إلينا كي نتعرف اليه، فارع الطول الاّ أنه لا يسير بشكل منتصب، كأنما اعتاد أن ينحني دائما بسبب طوله.. ربما كان مضطربا خائفا منفعلا الى حد ما، وعانقه عفيف دون مودّة كبيرة، وقبلته أنا وجلس الإثنان يروز أحدهما الآخر.. سأله عفيف: "لماذا لم تأت أمك؟" قال: "ستلحق بي بعد أسبوع! " وبحث في جيوبه وأخرج كومة من الأوراق والصور وكأنه سفير جديد يقدّم أوراق اعتماده الى رئيس البلد الذي أرسل اليه.. هذه شهادة ميلادي، وهذا جواز سفري.. كانا باللغة الألمانية، وتاريخ مولده كما قالت أمه، قبل عامين من مولد سلام واسمه فولكمار وكنيته مثل عائلة أمه.. وأرانا بعض الصور مع المرأة التي ربته وهو يساعدها في صنع البسكويت وصفه في الصواني، وغيرها في رش الحديقة.. كل هذه الأمور كان يمكن تزويرها ولكن الشبه كان قويا بينه وبين نضال، عدا أن عيني فولكمار كانتا زرقاوين، وعينا نضال عسليتين.. الطول الفارع وعظام الجمجمة وشكل الفم والأنف..

أخرج نظارته ووضعها على عينيه، كان يعاني من الستجماتزم ويتساءل "لا أعرف ممن ورثت هذا الإنحراف! ولكن هذا أفضل.. أصبحت أراكم جيدا الآن!"

كان أولادي سعداء أن يكون لهم أخ أجنبي يتقن اللغة الإنجليزية الى جانب لغته الأصلية فيستطيعون التحدث معه.. كانت أمه حين تزوره ويسألها عن والده تقول له بأنه المسيح، فيسخر منه الأولاد ويشفق عليه آخرون ويقول بعضهم أن أمه مجنونة.. لقد كف عن الجواب وانطوى على نفسه.. ولكن حين كبر وقالت له أمه بأن أباه رجل مهم في سوريا امتلأت في رأسه الأوهام.. ظن أنه سيدخل قصرا وتمتد له مائدة عامرة فخاب أمله اذ رأى بيتا متواضعا ومائدة عادية.. استغرب أن سلام ويوسف قد اختارا الهندسة مهنة لهما في مقبل الزمن، بينما القانون أوالجيش هما المجالان اللذان يوصلان الإنسان الى قمة المجتمع..

قال له يوسف: ان المتميزين عندنا يدخلون فرع الطب أو الهندسة، أما القانون والجيش فلا يتطلبان منا الاّ الحد الأدنى من علامات النجاح في الثقافة العامة الثانوية..

سأله عفيف: "وأنت ماذا تطمح أن تكون بعد دراستك في القانون؟"

-أرغب في أن أصبح قاضيا وأدخل محكمة لاهاي الدولية! بما أنني لم أستطع أن أكون رجل جيش لا بصفاتي الجسدية ولا الروحية، فأنا أكره العنف، وفي رأيي أن القادة العظام في التاريخ هم أسوأ الحكام، وأكثر الناس الذين جلبوا البلاء لشعوبهم.. قال عفيف مستاءا:

-المهم ليس اختيار الفرع فقط، ولكن القدرة على التفوق فيه، ولهذا من الخطأ أن يقيد الإختيار بعلامات النجاح في المرحلة الثانوية.. ومن ناحية أخرى فان الشباب عندنا يفضلون الطب لأنه أكثر المهن الحرة ربحا في مجتمعنا.. ودراسته لا تتطلب تفوقا ذهنيا كالذي تتطلبه الهندسة، ولكنه يتطلّب مهارات معينة لا ينجح فيها كل طبيب عند التطبيق.. وفي بلادكم يختلف الأمر، يصبح للقانون والجيش أهمية قصوى بسبب تعقد المشاكل والمنافسة الإستعمارية الشرسة.. ولكن لا يصبح كل من درس القانون مميزا كلنكولن، ولا كل قائد عسكري يجلب البلاء لشعبه كهتلر!..

المهم هي الشخصية التي يتحلى بها الإنسان، والقيم التي يؤمن بها، والنظام الذي يحركه أو يمنعه من تحقيق ذاته..

أذكر بضعة أحاديث جرت بيني وبين فولكمار حين نكون منفردين.. أخبرني أن أمه كانت تقول له حين يسألها عن والده أنه لا أب له، وترفع عينيها الى السماء قائلة: "أبوك الذي في السماوات"، وكيف كان يظن حقا، أن الله هو والده.. وحين ترعرع وشب عن الطوق، بدأت تقول له بأن والده رجل مرموق ومهم جدا وربما أصبح الرجل الأول في بلده لو أنه يغير سياسته، ولكنها لم تكن تبوح باسمه له.. كان طموح فولكمار كبيرا جدا ففي اعتقاده أن والده إذا اعترف به وعرف الناس أنه ابن عفيف البزري وسينا موريا فان أبواب النجاح ستفتح على مصراعيها أمامه!

قلت له: نحن ربينا أولادنا بأن عليهم مسؤولية كبيرة تجاه وطنهم، وأن عليهم أن لا يتخلوا أبدا عن مبادئهم، وعما يعتقدون بأنه حق، حتى لو نالهم الأذى وأودعوا في السجون.. وأردفت:

-ظننت أنك كنت تغمز البارحة من نضال أبيك عندما تحدثت عن القادة العظام بأنهم أسوأ الحكام وأكثر الناس الذين جلبوا البلاء لشعوبهم.. هذا ينطبق على البلاد المستعمرة لشعوب غيرها وتضطهد شعبها، أو على القادة العملاء في البلدان الواقعة تحت الإحتلال ويريدون إدامة العذاب والعبودية لشعوبهم، لا على المناضلين أبطال التحرير، فلا تظن أن والدك يغير يوما سياسته، ويتخلى عن نضاله.. لا أحد يؤثر عليه مطلقا.. فلا تكن عونا عليه كالآخرين!

دخلت المطبخ المقابل لغرفة الطعام لأغسل الصحون بينما ذهب الأولاد الى الداخل لتحضير دروسهم، وبقي فولكمار وحده مع والده.. لم أنتبه الى بداية الحوار بينهما ولكن صوت عفيف علا وبت أسمعه جيدا من مكاني.. قال له:

-أنا لا أستطيع أن أؤثر فيك كما أؤثر في أولادي الآخرين، فلقد تربيت خارج بيتي، وتشكلت آراؤك وقناعاتك التي لا أوافقك عليها ولا تناسبني.. ولا تظن أنني أب متسلّط أفرض آرائي على أبنائي.. لقد أتيحت لهم منح الدراسة في أحسن جامعات موسكو ولكنني رفضت. أردت أن يدخلوا الجامعة في بلادهم ويكونوا وثيقي الصلة بوطنهم وأمتهم ويكونوا أحرارا بتفكيرهم.. والآن تأتي وتخبرني أنك بعد أن حصلت على منحة لدراسة اللغة الإنجليزية خلال عام ذهبت الى اسرائيل في عطلتك الصيفية، وزرت مستعمراتها، وأدهشك التقدم العمراني فيها والحدائق الغناء الي تحيطها وتشفق على سكان مستعمرات الشمال مما يصيبهم من أذى الفلسطينيين!.. ألا تشفق على سكان صيدا ونصفهم من أهلك وقرابتك مما ينالهم من أذى اسرائيل بهدم بيوتهم وقتل أبنائهم وحرق مزارعهم وبساتين البرتقال في ضواحيهم، لا لشيء الاّ لأن الفلسطينيين الذين اقتلعتهم اسرائيل من جذورهم ورمتهم خارج ديارهم يعيش البعض منهم في جوارهم؟ كيف تدرس القانون اذا لم تعرف الحق من الباطل، وتنصب نفسك قاضيا في محكمة دولية ذات يوم.. ثق أنك لن تبلغ هذا المنصب حتى تكون طرفا في اللعبة القذرة التي تجعل من إسرائيل ذات حق والقضية الفلسطينية بعيدة عن كل عطف وتأييد!..

كان صامتا لا يفوه بكلمة واستمر عفيف:

-أنا رجل خضت الحروب وتعرضت للمهالك ودخلت السجون، وحكم علي بالإعدام.. ثم جلست في قوس المحاكمات أكثر من مرة، وأصبحت قائد جيش.. لو شئت

بجرّة قلم أن أصبح سيد البلاد ما كان يعيقني شيء!.. لم أبلغ ما بلغته من مجد لأنني رجل متطرف أو ارهابي أو انتهازي أو دجال.. تظنني رجلا أكره السلام، وأنتشي بإهراق الدماء، ولهذا اخترت مهنة الحرب؟.. أنا ببساطة انسان يكره الظلم ولا يكره السلام، يكره الإمبرياليين ولا يكره شعوبهم، يكره الإستغلال ولا يكره العلاقات المتكافئة، يكره الربا ولا يكره التجارة، يكره الخونة والعملاء ولا يكره حق الشعوب المظلومة في مقاومة الإحتلال!

هذا هو موقفي من الحياة، وهذا الذي يقود الى تصرفاتي.. وأنا بالتالي لست رجلا متعصبا.. لا أتعصب لدين أو طائفة ففي رأيي أن كل الأديان قد عادت الى وثنياتها وفقدت روح الإيمان وجوهره في خلاص الإنسان.. ان ما ينفع الإنسانية ويجنبها الدمار الشامل هو ما أعتنقه من مذهب اليوم. ولست متعصبا كذلك لأيديولوجية معينة كما يروج عني الخصوم، فأنت لا تستطيع أن تصنفني وتعلق يافطة على ظهري تنبئ بهويتي.. ان ما ينبئ عني هو ماكتبته حتى اليوم وما سأكتبه بقية حياتي.. وبعد أن تنهي دراستك الجامعية وتصبح أكثر نضوجا ستعرف والدك على حقيقته، وحين تدرس اللغة العربية تقرر الإنتماء اليه، أو تشق طريقا خاصا بك..

مر الأسبوع وكان فيه فولكمار يوثق علاقته مع أولادي، ويخرجون الى الأسواق يشتري الهدايا التذكارية لرفاقه من الصناعات الدمشقية، ويزورون المتاحف والآثار القديمة، وجاءت أمه وسألتني عن تطور العلاقة بين فولكمار ووالده فقلت لها: "اسألي فولكمار.. كانت أحاديثه معه غالبا بشكل منفرد حين يكون الجميع في كلياتهم أو مدارسهم وأنا في المطبخ أعد الطعام".

أخلى يوسف مكانه لسينا موريا حين جاءت ونام على الديوان في الصالون، أما نضال فكان قد أخلى سريره من قبل لينام فيه فولكمار..

كان فولكمار وأمه يتحاوران بالألمانية ويتشاجران، وفهمت من سينا أنه لم يعجبه شكل الحذاء الذي أحضرته له معها.. كان يبدو من لهجته أنه ناقم عليها لأمر ما.. قالت لي بأن الغيرة تستبد به من الطريقة التي تعامل بها أولادي.. ولأنها تخلت عنه في صغره، وأنها كذبت عليه في أشياء كثيرة وجعلته يعيش في الأوهام.. وتنهدت: "لا أعرف

ماذا وضع عفيف في رأسه.. ألا يكفيني الأذى الذي نالني بسببه حتى يشوه صورتي أمام ابني؟ قلت لها:

-لايمكن لعفيف أن يشوه صورتك أمام ابنك! أبدا!

-بلى! انه يلقي اللوم علي فيما حدث لفولكمار من وضع لا يمكن لـــه تـــصحيحه الآن، انه يلومني أنني لم أخبره عنه في الوقت اللازم، وتركته لامرأة غريبة ترعاه، ولم أعطه الحنان الكافي، ولم أشربه الحب لأهله وناسه.. كان يردد كلام أبيه علي!..

بكت سينا موريا وقالت:

-انني أعطيه نصف راتبي ولكن هذا لا يرضيه.. انه يحب المرأة التي ربّته أكثـــر من حبه لي، وهي دائما تحرّضه علي!.. أمك لا يشغلها الاّ السفر ومقابلة زعماء العالم، ليس لديها وقت لتسألك عن معاناتك، وعن الأزمة التي تعيشها.. انه في السن التي يريـــد فيها أن يبني علاقات مع الفتيات من الطبقة الراقية، وهو لا يستطيع هذا لأن والده يرفض الإعتراف به!.. سيضيع هذا الولد، انه مصمم حين يعود الى ألمانيا أن يجد بائعة هـــوى يعيش معها.. تصوري! كيف أسمح له بهذا؟ سيتخلى عن دراسته وجامعته ولـــن يـــنجح أبدا.. ذهبت الى طبيب نفسي وأخبرته أمره.. قال لي: "مابه من شـــيء.. انـــه احـــساس الوحدة الذي يعانيه، وهذه ردود فعل طبيعية.. يجب أن يتزوج!" ولكنـــه لـــن يـــستطيع الزواج من عائلة مرموقة دون أن يعرف من يكون والده..

كانت تريد أن يعود فولكمار الى بلده وتسافر هي لمقابلة أصدقاء الملك فيصل فـــي السعودية.. مدحته كثيرا وقالت أنه كان صديقا لها.. كثيرون كانوا أصدقاءها: عبد الكريم قاسم، وهلموت كول، والمشير عامر والآن تترحم على الملك فيصل وتقول عنه بأنه كان صديقا حميما لها.. أسرّت الي بأنها كانت تنوي توثيق الصلة بين سوريا والسعودية حتى أنها فكرت بتزويج سلام الى أحد أبناء الملك فيصل فقلت لها: "اياك أن تذكري هذه القصة أمام عفيف.. انك لا تعرفين كيف تكون ردود فعله!" قالت:

-أعرف، ان خطأ عفيف أنه لا يعرف أبدا كيف يصل الى مركز القـــوة.. يعـــادي على كل الجبهات.. ما ذنب السعودية حتى يعاديها! ألأن لديها بترولا تريد أن تبيعه بـــدل أن يبقى مدفونا في الأرض؟ ان عفيف قد تبنى قضية خاسرة، لأنه اليوم لا يـــستطيع أن

يكون فعالا في الأحداث كما كان سابقا الاّ اذا بدّل سياسته وعرف أن ما قدر لهذه المنطقة سيجري به أو بدونه..

لم تعجبني لهجتها فقلت لها:

–عفيف لم يتبنّ قضية خاسرة، انه انسان قلّ أن تشهدي مثل ثقافته ونزاهته وبعد نظره وشمولية تفكيره بين عسكريي الوطن العربي، ولكن لسوء حظه تبنى قضية تآمر عليها العالم وخانها حتى قادتها، وأحاط بها الجاهلون والمزورون والإنتهازيون والمفسدون وأخذوا بزمامها ولم يتركوا للحقيقة أن تظهر أبدا..

جرى الكثير من الأحاديث بين سينا موريا وعفيف كنت فيها مستمعة، أصبحت تعبر عن نفسها جيدا باللغة الإنجليزية ولم يعد هناك من حاجة الى وساطتي.. لم يغير عفيف شيئا من مواقفه لا بالنسبة للقصة الخاصة بها، ولا للسياسة العامة التي تتبناها.. عرضت علينا السفر الى ألمانيا فرفض عفيف، وسافرت الى السعودية والأمور كلها معلقة..

وحين عادت من السعودية انفردت بعفيف في غرفة الجلوس، كانت في كل مرة تتحدث فيها تخلط قصتها الخاصة بالأحوال العامة.. سمعت طرفا من الحديث عن الجولان والضفة الغربية، وعن ضرورة زواج فولكمار بواحدة من عائلة أبيه.. كانت قد حدّثتني بهذا قبل أن تسافر، وكنا قد دعينا الى عدد من بيوت العائلة دون أن يبدي اهتماما خاصا بأحد.. أعجبه كرم الضيافة، والأطباق الشرقية التي قدمت له.. سألته: "ماهي المواصفات التي تريدها لفتاة أحلامك فأجاب: "فتاة تكون طويلة القامة ممشوقة القوام لها شعرطويل أشقر وعينان زرقاوان، ولم يكن فيمن رأى من تحمل هذه الصفات. كان يصف أمه التي حرم من حنانها ولما قلت لها ذلك ابتسمت وقالت: "آه فولكمار، كم هو متطلب!..

* * *